الفصل الأول

يوسف بن تاشفين

كان اللمتونيون فريقاً من قبيلة صنهاجة القديمة التي نزحت من شبه الجزيرة العربية إلى المغرب، كان أبو بكر الصديق أول من سيرهم من اليمن إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر ومنها انتقلوا إلى المغرب مع موسى بن نصير، وانتقلوا مع طارق إلى طنجة ثم ساروا إلى الصحراء رغبةً في العزلة، ويرجع اشتقاق الاسم إلى (اللمت) أي الثوب البسيط الذي كانوا يرتدونه.

إنهم بدو رحل جبلوا على الشدة والصبر، برز من اللمتونيين يحيى بن إبراهيم في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي؛ رحل ذلك الرجل في أرجاء العالم الإسلامي يحصّل العلم والمعارف، ولما امتلأت جعبته بزاد وفير من المعارف آب إلى بني جلدته وقد صمم على تثقيفهم.

صادف يحيى في طريقه رجلاً نشط إلى تلك المهمة هو عبدالله بن ياسين، فاصطحبه إلى قبائل لمتونة وكدالة ولمطة والمصامدة التي تعرف باسم (الملثمين) حيث استمع إليه القوم وأعلن زعيمهم أبو زكريا يحيى بن عمر تلمذته لعبدالله وأنه على استعداد ليقود جنده لنصرة دعوة الله إلى التوحيد.

رحب عبدالله باقتراح أبي زكريا ونصّبه قائداً لقوات الملثمين الذين أطلق عليهم اسم المرابطين.

فالمرابطون اسم جديد، كان وليد اللحظة، ومعناه الذين تعاهدوا على نذر أنفسهم والمرابطة لنشر التوحيد في الصحراء.

قاد أبو زكريا جنده في ذلك العام ٤٥٠هـ، ١٠٥٨م بحماسةٍ شديدةٍ، فاندفعوا كالأسود الكاسرة إلى المغرب الأقصى، فاكتسحوا قبيلة زناتة وقادتهم من آل زيري.

ولما سقط أبو زكريا قتيلاً أثناء الغزو، سارع عبدالله بن ياسين باختيار أخيه أبي بكر مكانه.

لكن في العام التالي مات عبدالله بن ياسين، فقبض القائد أبو بكر على ناصية الأمر، بيد أن إفريقية ضاقت بسكانها، فاختار القائد أن يبني عاصمة جديدة للمرابطين، ووقع اختياره على موقع المدينة فأسماها مراكش، وكان ذلك أوائل سنة ٤٥٤هـ، ١٠٦٢م.

وبينما كان القائد مشغولاً ببناء العاصمة الجديدة إذ نشبت معركة بين قبيلتي كدالة ولمتونة، فهرع أبو بكر من فوره ليوقف الحرب واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم من قبيلة صنهاجة، وأمره أن يواصل البناء.

وها هو يوسف ينتهز الفرصة ويوطد لسلطانه، وسرعان ما بنى في مراكش مسجداً وقصراً سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م)، وجهز الجند وزاد في عدتهم وأحسن تدريبهم، فتعلقت به القلوب؛ حيث كان جواداً، ذكياً، شجاعاً، يحتقر مظاهر الترف، ولا يسرف في الشراب أو الطعام، وسرعان ما بلغت عدة جيشه مئة ألف مقاتل.

قاد يوسف جيشه فغلب على المغرب الأقصى كله، ودخل مدينة فاس، وامتلأت خزائنه بالكنوز.

حين آب أبو بكر، بعد أن انتهى من أمر كداله ولمتونة، لقيه يوسف في الطريق على رأس جيش ضخم مهدداً ومنذراً له، أدرك أبو بكر أنه لا قبل له بيوسف وجنوده، ورضي بأن يكون حاكماً للمتونيين في الصحراء، وأن يدع ليوسف المرابطين، وما لبث أن توفي أبوبكر سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م).

خلا الأمر ليوسف فانطلق إلى طنجة فدخلها، وكانت بيد الأدارسة، وعاونه على فتحها أمير إشبيلية المعتمد بن عباد، وفي سنة ٤٧٢هـ (١٠٨٠م) أفلح يوسف في دخول تونس وسبتة ونزع إلى الاستيلاء على الأندلس.

أغضب استيلاء يوسف بن تاشفين على سبتة ألفونسو ملك قشتالة وسانشو ملك أراجون ونافار والكونت ريموند، فاتفقوا على سحق قوة المرابطين، واسترداد سبتة والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس.

سارت جيوشهم وانتزعت مدينة قورية من بني الأفطس وهي في جهة ماردة بالأندلس، وأحرقوا قرى إشبيلية ونسفوا حقولها، واخترقوا جزيرة طريف وحاصروا قلعة سرقسطة الحصينة.

هنا اتفق أمراء الأندلس المسلمون على الاستنجاد بيوسف بن تاشفين، لكنه تردد في اجتياز الأندلس ومحاربة جيوش المتحالفين، فسارع بعض الأمراء بالخضوع ومهادنة الفونسو بأداء الجزية والنزول عن الحصون، وكان من هؤلاء المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، لكن صلف وغرور ألفونسو أغاظاه، فأغلظ القول إلى رسول ألفونسو إليه، وبعث إلى يوسف برسالة ينعته فيها بأمير المؤمنين ويرجوه أن يعبر إلى الأندلس ليقاتل العدو الذي يطارد المؤمنين بكل ما يملك من غدر وخديعة قاصداً محو الإسلام في الأندلس المسلمة.

ولكن بدا للمعتمد أن يسير إلى يوسف بنفسه، فاستقبله يوسف بالترحاب وأشار عليه بالعودة إلى الأندلس ليعد لجيش يوسف المؤن اللازمة لعبوره.

وفي ربيع الآخر من سنة ٤٧٩هـ (آب ١٠٨٦م) عبر يوسف بجيشه من سبتة، داعياً ربه أن يوفقه، وتسلم الجزيرة الخضراء من المعتمد بن عباد، وحصنها وشحنها بالمؤن والذخائر، ثم انطلق إلى إشبيلية، فمكث فيها

أسبوعاً، رتب فيها جيشه وانتظر وفود الأمراء الأندلسيين عليه بجيوشهم، ثم انطلق بالجيوش من إشبيلية.

حين علم ألفونسو بتحرك يوسف عقد مجلس الحرب مع حلفائه. اجتمع للحلفاء نحو مئة ألف جندي، تحرك بهم ألفونسو لملاقاة القوات المسلمة، ولما عسكر الجيشان على بعد أميال من بطليوس في سهل الزلاّقة أرسل يوسف كتاباً إلى ألفونسو يخيّره بين ثلاث:

* إما أن يعتنق الإسلام.

* أو يؤدي الجزية.

* وإما الحرب الضروس حتى الفناء.

فقذف ألفونسو بالكتاب أرضاً وصاح في الرسول غاضباً:

قل لمولاك إن موعدنا في ساحة القتال.

وانطلقت قواته على معسكر الأندلسيين الذي يقوده المعتمد، لكن انبرى لها جيش المرابطين يقوده ابن عائشة قائد يوسف الشجاع، فباغت قوات ألفونسو، وكانت الهزيمة الساحقة لجيوش التحالف.

وكان يوسف على جواده كالسهم الثاقب بين جنوده يحصد الرؤوس ويبعث بالذعر في صفوف الأعداء.

وحين جرح ألفونسو اضطر رجاله إلى سحبه بالقوة من ميدان القتال إلى مدينة قورية.

وكان نصر موقعة الزلاقة مدوياً في الآفاق، في رجب سنة ٤٧٩هـ (تشرين الأول ١٠٨٦م)، وطارت شهرة يوسف بن تاشفين في أرجاء المعمورة.. وهابه القاصي والداني.

لكن وفاة ابنه أبي بكر عجّل بعودته سريعاً إلى إفريقية.

بعد عام عبأ ملك قشتالة جيوشه للحرب، وها هو مرابط قرب إشبيلية وأمراء الأندلس منقسمون على أنفسهم، وراسل المعتمد يوسف وعرض عليه ما حاق بالأمراء من فرقة، وعاود الطلب بمجيء يوسف لقيادة جيوش الإسلام لمكافحة جيوش التحالف بقيادة ألفونسو.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٤٨١هـ، (حزيران ١٠٨٨م) أقبل يوسف إلى الجزيرة الخضراء في جيش عرمرم، وأمر الأمراء بموافاته بقواتهم إلى مرسية، فخفّوا ملبين الدعوة، ولكنه لم يطلب منهم أن يعاونوه بالجند، وسار بجيشه إلى طليطلة، ثم عاد فجأة إلى الأندلس وسار إلى غرناطة، لشكه في أميرها عبدالله بن بلكين بن باديس وتحالفه مع ملك قشتالة.

استقبل عبدالله بالترحاب يوسف، لكن حين دخل جيش المرابطين المدينة اعتقل يوسف بن تاشفين صاحب غرناطة عبدالله بن بلكين وأرسله

سجيناً مع أهله إلى مدينة أغمات، ثم قبض على تميم بن بلكين والي مالقة وأرسله سجيناً مع أخيه. واستولى على مدينته.

بعث يوسف أربعة جيوش إلى الأندلس، وبقي هو في سبتة في جيش احتياطي.

حين شاهد ابن عباد جيش سير بن أبي بكر ميمماً شطر إشبيلية نشط إلى المقاومة، لكن المرابطين انتزعوا مدينة جيان، وسلمت لهم قرطبة، ثم سقطت قرمونة.

واستغاث ابن عباد بالنصارى للدفاع عن إشبيلية، لكن المرابطين استطاعوا هزيمة النصارى الذين كانوا في ستين ألفاً، فلجأ النصارى إلى الفرار، ثم سقطت إشبيلية في رجب سنة ٤٨٤هـ أيلول ١٠٩١م، وواجه المعتمد بن عباد نهاية مأساوية.

لقد قبض قائد جيش المرابطين على ابن عباد ونسائه وأولاده وبناته، وألقي ابن عباد في سجن أغمات قرب مراكش وألحقوا به أسرته، وبعد أن لقي الهوان في محبسه لأربع سنوات توفي حسرة وغماً.

وبعد الاستيلاء على إشبيلية زحف ابن عائشة واستولى على ولاية بطليوس، وانتهى سلطان ابن الأفطس في سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

ولم يبق أمام المرابطين سوى ولاية سرقسطة وكان يحكمها ابن هود.

ولكن علينا قبل أن نسترسل في سرد الأحداث التريث قليلاً لنتحدث عن المعتمد بن عباد وابن هود.

حين انهارت الخلافة الأموية في الأندلس في بداية القرن الخامس الهجري وقامت على أنقاضها دول الطوائف كانت دولة بني عباد في إشبيلية أقوى هذه الدول، ونشط بنو عباد إلى محاربة جيرانهم من أمراء الطوائف، وكان زعيم بني عباد أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد دائم الاشتباك في معارك مع أمراء غرناطة ومالقة وقرطبة، مما نتج عنه فوزه بقرطبة واستجه وغيرها، مما جعل مملكة إشبيلية أعظم قوة في الأندلس.

وخلف المعتمد أباه أبا القاسم سنة ٤٦١هـ، فسطعت شمس إشبيلية في زمنه، وطمع في جيرانه بني ذي النون أمراء طليطلة، لكنه اضطر إلى محالفة ملك قشتالة ضد بني ذي النون.

استولى ألفونسو على طليطلة وسقط بنو ذي النون، وهنا طمع ألفونسو في الاستيلاء على إشبيلية، حينئذ سارع المعتمد إلى مراسلة يوسف بن تاشفين، وجمع له أمراء الأندلس (الطوائف).

وقد تقدم سرد ما حدث من يوسف وقيادته لجيوش الإسلام وانتصاره على القوات المتحالفة في سهل الزلاقة.

أما ابن هود، فهو أبو جعفر أحمد بن هود زعيم بني هود، وقد استطاع ذلك الرجل العجيب أن يفيد من المرابطين دون أن ينالوا منه شيئاً.

كان ألفونسو وجيوش وأعوانه يحاصرون إمارة سرقسطة، ولما عبر يوسف بقواته المتحدة «كانت قوات أمراء الأندلس ملوك الطوائف تحت قيادته»، سارع الإسبان النصارى بفك الحصار عن سرقسطة، وحين حقق الله سبحانه وتعالى بقدرته النصر للمرابطين في سهل الزلاقة استرد ابن هود سلطانه على إمارته لم ينقص منها شيء.

لكن لم يلبث صاحب أراغون النصراني واسمه سانشو أن انطلق كالسيل الجارف يكتسح الممالك والإمارات الصغيرة. انطلق سانشو في عشرين ألف مقاتل فحاصر وشقة، هنا ارتعدت أوصال ابن هود، وسعى خببًا إلى الاستعانة بيوسف بن تاشفين، وقد حدث أن قام سانشو بهجوم كثيف على قلعة وشقة، وبينما هو في سيره أرداه سهم قتيلاً، ولم ينس أن يوصي ولده الدون بيدرو بالاستيلاء على وشقة.

أرسل ابن هود ولده عماد الدولة عبدالملك إلى مراكش سعياً إلى محالفة يوسف بن تاشفين، فأمده زعيم المرابطين بسبعة آلاف جندي. التقى جيش ابن هود وجيش ملك أراغون الجديد، الدون بيدرو، ومالت الكفة لصالح

ملك أراغون؛ إذ حقق انتصاراً حاسماً في (الكرازة) واستولى النصارى على وشقة أواخر سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م.

كان هذا إيذاناً بانطلاق قوات بيدرو إلى سرقسطة، وآثر ملك أراغون أن يقيم في وشقة بعد أن حوّل مسجدها إلى كنيسة.

واطمأن الدون بيدرو إلى قرب سقوط الأندلس، خاصة وقد سبق استيلاءه على وشقة وقوعُ بلنسية في يديه قبلها بعامين.

لكن كيف تم الاستيلاء على بلنسية ؟

تروج الروايات الغريبة لشخص اسمه السيد، فمن يكون السيد؟

إنه الكونت رودريك ديازري بيڤار الذي يعرف عند النصارى الأسبان بالسيد الكمبيادور، أو السيد القائد الأعظم والفارس الشجاع.

ظهر رودريك أواخر حكم فرديناند ملك أسبانيا، لقد قسم فرديناند مملكته بين أولاده الثلاثة، فانضوى السيد تحت لواء سانشو ملك أراجون الذي سارع بتعيينه قائداً لجيشه، وسرعان ما انطلق مع مليكه سانشو وطرد الولدين الآخرين من أرضهما واستولى عليها.

ولما مات سانشو انخرط السيد في خدمة ولده الدون بيدرو، واستولى على بلنسية في عهد أبيه الراحل، ثم كان له قصب السبق في الإسراع بإسقاط وشقة.

حاول يوسف مراراً استرداد بلنسية، وأفلح في استردادها بعد وفاة رودريك بثلاث سنوات أي سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م، لقد حاصرت قوات يوسف المدينة حصاراً شديداً وطويل الأمد، وبصبر لا ينقطع.

وبعد أن صارت بلنسية في قبضة زعيم المرابطين انطلق يوسف فاجتاز الأندلس ليتفقد شؤون الإمارات المسلمة، وكان ذلك سنة ١١٠٣م، وصحب معه ولديه أبا الطاهر تميماً، وأبا الحسن علياً، واختار علياً لولاية العهد؛ إذ كان يفوق أخاه الأكبر في الذكاء وحسن الرأي والمكيدة.

عقد يوسف بن تاشفين اجتماعاً بالأمراء والقادة في قرطبة، وكانت عاصمة دولة المرابطين في الأندلس، وانضم إلى الاجتماع كبراء الأندلس وزعماء القبائل المغربية، وأطلع يوسف الجميع على رغبته في عقد الولاية من بعده لابنه علي، وألزمهم طاعته وعونه، وسرعان ما حرّرت وثيقة بذلك الشأن، وجاء فيها: إن أمير المسلمين نصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ألفى ابنه علياً أكثر أهلية وصلاحية للاضطلاع بجليل الأمور

وخطيرها، ورآه أكثر اقتداراً على تلقي أعباء الحكم، ومن ثم فقد آثره واصطفاه وعيّنه ورفعه إلى مقام الملك وأولاه العرش بعد أن تشاور من قبل مع أعيان الناس وأعقلهم وأقدرهم في أنحاء المملكة كافة.

ولم يلبث يوسف بعد ذلك أن عاد إلى إفريقية ليعيش بضع سنين ثم يتوفى في قصره بمراكش في شهر المحرم من سنة ٥٠٠هـ (أيلول ١١٠٦م). وقد نيّف على التسعين عاماً (٤١٠-٥٠٠هـ).

ولعل من الأفضل أن نحلل شخصيتي ابن تاشفين وابن هود وذلك لأنهما في رأينا من أهم الشخصيات التي أثرت في تاريخ كل من المغرب والأندلس.

لقد ظهر يوسف بن تاشفين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، والنصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، وشاد صرح دولة المرابطين التي سطعت في سماء المغرب والأندلس.

كان يوسف ينتمي إلى قبيلة لمتونة من بطون صنهاجة، ولما رحل زعيم لمتونة يحيى بن إبراهيم للتزود بالمعرفة وعاد مصطحباً عبدالله بن ياسين الفقيه القيرواني ليعلمهم أمور الدين استقر الأمر لأبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني بعد وفاة زعيم لمتونة.

وحين قتل عبدالله بن ياسين سنة ٤٥١هـ (١٠٥٩م)، ظهر يوسف بن تاشفين على مسرح الأحداث، فقد استقل أبو بكر بالحكم بعد وفاة أخيه أبي زكريا وسار إلى الصحاري الجنوبية مستخلفاً ابن عمه يوسف في الحكم، فعمد يوسف إلى افتتاح المعاقل والحصون المغربية في غيبة ابن عمه أبي بكر اللمتوني، ثم أعلن قيامه بالحكم نافياً أبا بكر إلى الصحراء فيموت هناك سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م).

لقد تميز يوسف بالعبقرية العسكرية والدهاء السياسي معاً، وبذلك استطاع أن يشيّد دولة المرابطين الكبرى، بعد أن وضع اللبنة الأولى فيها فقيه متواضع هو عبدالله بن ياسين.

أما دولة بني هود فكان أفرادها ينتسبون إلى بني تجيب، وقد حكموا ولاية سرقسطة، الثغر الأعلى شمال شرقي الأندلس.

وأصل الحكاية يعود إلى أنه حين اندلعت الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط الدولة الأموية استطاع المنذر بن يحيى التجيبي الاستقلال بشؤون سرقسطه بداية من سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، وأعلن نفسه أميراً وتلقب بالمنصور، ولما خلفه ولده يحيى الملقب بالمظفر سنة ١٠٢٦م انقض عليه سليمان بن أحمد بن هود والي لارده فانتزع سرقسطة وحكمها بنو هود منذ ذلك الحين.

اتخذ سليمان بن هود لقب المستعين بالله، واستطاع توطيد ملكه بعد التصدي لأطماع النصارى وردهم عن ملكه بضراوة سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م.

ثم تولى أبو جعفر أحمد المقتدر شؤون الحكم بعد وفاة أبيه سليمان سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٦م، واستمرّ في الجهاد، إلى أن ظهر حفيده أبو جعفر أحمد بن يوسف بن هود، الذي سارع بالاستعانة بيوسف بن تاشفين، كما مر بنا من أحداث.

obeikandl.com